المحاضرة الثانية :الأسلوبيّة التعبيريّة

ينسب الكثير من العلماء ظهور علم الأسلوب والأسلوبية التّعبيرية إلى العالم السويسري(شارل بالي) تلميذ دي سوسير فـ "أغلب مؤرّخي الأسلوبيّة يجمعون على أنّ شارل بالي هو من أصّل عام1902 م علم الأسلوب وأسّس قواعده النهائيّة"، وقد استفاد من ثنائيّاته الشّهيرة في إطار دراسته للّغات كمادّة قابلة للدّراسة التجريبيّة وأسلوبيّته أسلوبيّة لغويّة جاءت لتكمّل ما صنعه أستاذه ديسوسير، وعُرف منهجه فيها بالأسلوبيّة التعبيريّة الّتي تبحث في لغة جميع النّاس؛ ممّا دفعه إلى وضع بعض التّصنيفات للّغة :

-مستويات خطاب حسب طبيعة الحدث اللّغوي نفسه (كلغة الفلاّحين ولغة الأطبّاء واللّغة الأدبيّة، بما تحمله تلك اللّغة من أفكار خالصة، وما تحمله من عواطف ومشاعر، ومن هنا كان العمل الأدبيّ عنده لا يعدو أن يكون ركيزة، أو وعاء، أو حجة تتيح تحليل وقائع اللّغة العاطفيّة وليس هدفا للتّحليل الأسلوبيّ، لأنّ الباحث في الأسلوبيّة التعبيرية له طريقتان:

الأولى :لا يعنيه إلاّ إيصال الأفكار للمتلقّي بدقّة.

الثانية :تستند إلى التّأثير على المتلقّي، ولم يركّز بالي كثيراً على النوع الثّاني.

ولذا كانت الأسلوبية التعبيرية لبالي تتجاهل تحليل النص الأدبي إذ يرى بالي أن هذا أمر يخص المنتج لما عنده من طاقات تعبيرية استطاع بها تطويع الأداة اللغوية للتعبير عن إحساسه

يستند فكر شارل بالي في دعوته إلى الأسلوبيّة التعبيريّة على بعض الأسس الّتي يراها مفتاحا لفهم مقاصده.

- ينظر إلى مفهوم الأسلوب على أساس أنّه جزء من شخصيّة المؤلّف، أو أنّه الإنسان بما أنّ الأسلوب يبقى ذاتيّا دائما، ومكمّلا لشخصيّته في الوقت نفسه؛ بمعنى أنّ الأسلوبيّة التعبيريّة تقوم بدراسة علاقات الشّكل مع التّفكير، وبذلك" تتناسب مع تعبير القدماء على أنّها لا تخرج عن إطار اللّغة، أو الحدث اللّساني المُعبّر في نفسه أو المقدّر في ذاته، وتنظر إلى البنى ووظائفها داخل النظام اللغوي، فهي وصفيّة ينصبّ اهتمامها على الأثر"

- هذا التّصنيف الأوّلي جعل شارل بالي يحدّد مجال الأسلوبيّة في إطار حقله اللّغوي حيث كان يركّز" على دراسة القيمة العاطفيّة للوقائع اللغوية المميّزة، والعمل المتبادل للوقائع التعبيريّة الّتي تساعد على تشكيل نظام وسائل التّعبير في اللّغة"، فأسلوبيّة بالي تهتمّ بوقائع التّعبير اللّغوي من ناحيّة مضامينها الوجدانيّة، فتدرس تعبير الوقائع الحسّاسة المعبّر عنها لغويّا؛ بمعنى الكيفيّة المتّبعة في اللّغة للتّعبير عمّا في النّفس.

مفهوم الأسلوبيّة التعبيريّة عند بالي يتمثّل في تفريقه بين نوعين من الخطاب: **الحدث اللّغوي:**

أ- ذلك الحدث النّفعي الّذي لا هدف من إنتاجه سوى الإبلاغ ؛أيّ: توصيل معلومات محدّدة للمتلقّي، وهذا الخطاب يلتزم بالقواعد والقوانين اللّغوية كلّها أشدّ الالتزام وهو محور أسلوبيّته التعبيريّة.

ب- الحدث اللّغوي هو نفس الخطاب النّفعي مع تضمينه قوّة التّأثير على المتلقّي، ولم يكن هذا النّوع من الحدث اللّغوي الّذي تهتمّ به الأسلوبيّة التعبيريّة.

الأسلوب الفرديّ الخاصّ جزء من اللغة الكلّ ، وتبقى طريقة الكلام المنطوق مستقاة أيضا من عموم اللّغة المنطوقة؛ ووظيفة أدوات التّعبير تبرز" المفارقات العاطفية والإرادية والجمالية والاجتماعية والنفسية"، وهنا تبرز أنواع التّعابير من خلال عمليات التواصل الاجتماعي في مستوياته المختلفة من أحاديث نصوص مختارة، وذلك ما جعل شارل بالي يقول:" إنّ الأسلوبيّة هو العلم الّذي يدرس وقائع التّعبير اللّغوي من ناحيّة محتواها العاطفي؛ أي التعبير عن واقع الحساسية الشعورية من خلال اللغة وواقع اللغة عبر هذه الحساسية ."

إذن؛ فالأسلوبيّة التعبيريّة عند بالي تتناول مستويات التّعبير اللّغوي حسب المنتج من جهة والمقام من جهة أخرى، مع تضمين الأدوات اللّغوية المستخدمة في كلّ طريقة تعبير ؛ لذلك قسّم شارل بالي الواقع اللغوي إلى نوعين:

- ما هو حامل لذاته مكتفيا بحدّه اللّفظي.
- وما هو مشحون بالانفعالات الوجدانيّة

وهنا اختلف بالي عن باقي الباحثين في أنّه ركّز دراساته على اللّغة الطبيعيّة

التواصليّة دون اللّغة الأدبيّة ، وهو بذلك يفرّق بين لغتين تضمّنهما قوله عندما يقول : "أنا لم أزعم قط أنّ لغة الوجدان لها وجود مستقلّ عن لغة العقل، وأنّ علم الأسلوب ينبغي أن يدرس الأولى ويدع الثّانية؛ بل إنّه يدرسهما معًا في علاقتهما المتبادلة، ويبحث نفسيّة كلّ واحدة إلى الأخرى في تكوين هذا النّمط من أنماط التّعبير اللّغوي"، من خلال هذه المقولة يزاوج بين اللّغتين، أو يحاول أن يتتبّع الاتّصال العفوي باعتباره تعبيرات انفعاليّة ذات أبعاد تأثيريّة، ومنه فإنّ الأسلوب عنده" يتجلّى في مجموعة من الوحدات اللّسانية الّتي تمارس تأثيرًا معيّنًا في مستعملها أو قارئها، ومن هنا يتمحور هدف الأسلوبيّة حول اكتشاف القيم اللّسانية المؤثّرة ذات الطّابع العاطفي."

-لعلّ سبب إقصائه اللغة الأدبيّة عن الدراسة الأسلوبيّة، وتركيزه على اللغة الاعتياديّة على اعتبار أنّها تأتي عن غير وعي، فتأتي على لسانه عفويّا مشكلة بُنى لسانيّة ذات تعبير وجدانيّ دفعه إلى البحث في القيم الوجدانيّة وحسب، فالنصّ الأدبيّ يمثّل لغة تخصّ شخصا بعينه، وهو الأديب الكاتب، أو الشّاعر اللّذان تفنّنا بطريقة انفراديّة في تفجير طاقات اللّغة في نصهما.

-بعد شارل بالي تطوّر مفهوم الأسلوبيّة التعبيريّة، وأصبح يعنى بالنّوع الثّاني من الخطاب وهو الخطاب التّأثيريّ الأدبي، الأمر الّذي أدّى إلى نقل الأسلوبيّة من ميدان اللّغويات إلى ميدان النّقد الأدبيّ، ثمّ جاء بعده" ماروزو "و"كراسو " ونادى كلّ منهما بشرعيّة الأسلوبيّة واعتبروها علما له مقوّماته وأدواته الإجرائيّة وموضوعه "ودعّم هذا الرأي جاكبسون وميشال ريفايتر وستيفين أولمان ودي لوفر وباختين وهنريش بليث وسواهم من الباحثين."

-أعاب بعض تلامذته عليه اختصاصه بدراسة الكلام دون اللّغة، ممّا دفع بهم إلى تجاوز هذه التصوّرات والسّعي في تطوير البحث عن جماليّات النص الأدبي، فبحثوا في الأدوات الكفيلة الّتي يحتاجها الأديب للإفصاح والتّعبير عن إحساسه الخاصّ، وهنا تأتي مهمّة الأسلوبي الّتي تتمثّل في البحث والاستقصاء عن تلك

الأدوات الّتي يستخدمها الكاتب للتّعبير عن أحاسيسه وانفعالاته، تلك الأدوات الّتي تنقل الخطاب النّفعي وتحوّله إلى خطاب تأثيريّ، مستفيدين من التطوّرات الّتي عرفتها العلوم الحديثة والنّقد، وما تقدّمه من تصوّرات جديدة تسهم في بعث الدراسات الأدبيّة النصيّة وفق رؤى تساير التطوّر الحاصل في جميع الميادين، وهذا ما نتج عنه لاحقا بروز تصّور جديد، أطلق عليه مصطلح الأسلوبيّة النفسيّة.

المراجع:

عبد السلام المسدي :الأسلوبية والأسلوب

فرحان بدري الحربي :الأسلوبية في النقد العربي الحديث دراسة في تحليل الخطاب

نور الدين السد :الأسلوبية وتحليل الخطاب

صلاح فضل :علم الأسلوب

حسن ناظم :البني الأسلوبية